قصص

شيخة حليوى

الطلّيّة C345

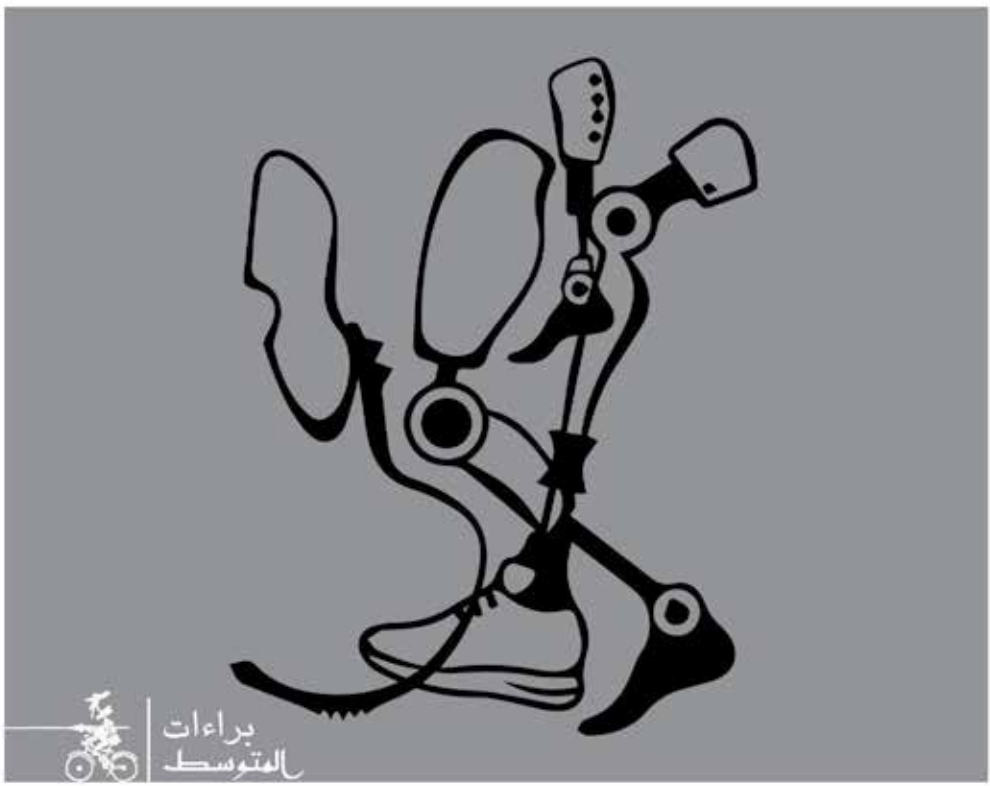

براءات المتوسط

الطلبيّة
C345

حقوق النسخ والتأليف © 2018 **منشورات المتوسط - إيطاليا.**

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Alttalabia C345 ***by*** "Sheikha Helawy"
Copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: شيخة حليوى / عنوان الكتاب: الطلبية C345
طبعة خاصة بفلسطين: ٢٠١٨
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

التوزيع في فلسطين: الرقمية
من فلسطين إلى العالم
www.alraqamia.com
info@alraqamia.com

ISBN: 978-88-85771-64-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

شيخة حليوى

الطليّة
C345

براءات
المتوسط

زيارة ليليّة

كلّ ليلةٍ يقطعُ أبي الطّريقَ من المقبرة إلى بيتنا. أسمعُ خطواته في الحديقة، وأتظاهر بالنوم بينما هو يبحثُ عن عصاهُ الّتي يخبّئها في خزانتي. أتركُ له الباب مفتوحًا، وألعبُ معهُ لعبةً مُسلّية، هو ينسى عينَيْهِ في القبر، وأنا أُخبّئُ العصا كلّ مرّة في مكانٍ آخر.

أراقبهُ بنصف عينٍ حتّى يعجز، ثمّ يتكوّر على الأرضِ بائسًا متعبًا. أقومُ من فراشي، وأمسكُ بيده، وأرافقهُ حتّى باب المقبرةِ قبل أن يستيقظَ أهلُ البيت، يدخلُ بثقة وأمان، وأراقبه من بعيد، وهو يختفي بين القبور.

لم أفكّر مرّة في التّخلّص من العصا، كأن أرميها في النهر، أو أكسرها على سور الحديقة، بل صرتُ أحرص عليها أكثر منذ بدأتْ زيارات أبي الليليّة. بعد كلّ زيارة، أشطب ندبة، تركتْها عصاهُ يومًا ما؛ واحدة على كتفي اليمنى، أخرى على ساقي اليُسرى، وندوبًا صغيرة كثيرة موزّعة على جلدي، وتحتهُ.

أوشكتُ أن أشطبها جميعًا، إلا واحدة، تركتُها في ذيل القائمة، كُنتُ أجهل مكانها على جلدي أو تحته. زيارة واحدة منهُ وأخيرة، وينتهي الأمر، وأشطبها كلّها، سأطيلُ هذه المرّة تكوُّره البائس في زاوية الغرفة، وقد أنتظرُ حتّى الفجر أو حتّى يتجاوز كبرياءه، ويطلب صراحة أن أرافقه إلى قبره قبل أن تشرق الشمس.

لكنّه لم يأتِ منذ ثلاث ليالٍ، أقلقَني غيابه كثيرًا، هل يكونُ قد فهم اللعبة؟ أم يئس من إيجاد عصاهُ؟

في الليلة الرّابعة، قرّرتُ أن أبحثَ عنهُ، فربمّا يكون قد ضلّ الطريق أو أخذتهُ غفوة قبرٍ طويلة، ولتكن زيارتهُ الأخيرة لنا، وبعدها سأتركُ له عصاهُ فوق قبره، ولن يتكلّف عناء المسير ليلاً ميّتًا أعمى.

في الثانية بعد منتصف الليل، خرجتُ من غرفتي بهدوء مُحاذرًا أن أُوقِظَ أمّي، وهي تتركُ باب غرفتها مواربًا، ثمّ اجتزتُ الصالون والحديقة، وأكملتُ طريقي نحو المقبرة. لم أفكّر كيف سأُقنع أبي أن يزورَنا لآخر مرّة، لم تكن في رأسي خطّة مُعيّنة، فأيُّ ميّتٍ لا يتمنّى دعوة مُشابهة لنزهة ليليّة، يتنفّس فيها هواءً منعشًا باردًا؟

عند بوّابة المقبرة لمحتُ من بعيدٍ خيالَيْنِ يتحرّكان، لم أتبيّن ملامحهما في الظلمة، اقتربتُ بهدوء، ورحتُ أراقبهما من وراء الشجرة الضخمة. كانت أمّي تنهالُ بالعصا على أبي، وهو يحاول تفادي ضرباتها بيَدَيْهِ دون أن يتحرّك من مكانهِ أو يصدرَ صوتًا.

سمعتُها من مخبئي تقول له:

قلتُ لكَ، أيّها اللعين، لا تضربْهُ على رأسهِ، لا تضربْهُ على رأسهِ، ستقتلهُ.

تحسّستُ رأسي، كان الدم الجافّ قد غطّى جرحًا غائرًا فيها.

بعد دقائق، كان الاثنان يجرّان أقدامهما بتعب وتثاقل نحو البيت.

وكُنتُ أنا أجتازُ بوّابة المقبرة، وأغيبُ بين القبور الغارقة في الظلمة.

فُسحة للنُّباح

أعرفُ رُعبه من الكلاب. رأيتُهُ في عينَيْه أوّل مرّة صادفتُهُ في الشّارع. لا يهمّ إن كان ذلك قبل أن هاجمهُ كلبٌ أسود عملاق، وهو في الثامنة من عمرهِ حين كوّن فكرة غريزيّة عن الخوف وعن الكلاب، أو بعد ذلك حين صارت الفكرة حقيقة مؤلمة.

مهما حاول تصنُّع الشّجاعة في حضورنا، لم تنجح عيناه في إخفاء الرعب من كلاب الحيّ القديمة والجديدة، أنا كُنتُ أرى رعبهُ بوضوح، وهو يُسرعُ الخطى، ولا يحيد نظرهُ عن الطريق أمامهُ حتّى تصير المسافة آمنة بينه وبين الكلب، أيّ كلب، فيرفع رأسه، ويعود إلى مشيته المتمهّلة.

" لو أنّه عضّني أو حتّى انتزع قطعة من لحمي، لكان الأمرُ مفهومًا، كُنتُ فعلاً سأفهم طبيعة الغريزة الحيوانيّة، وأعرف كيف أتعامل معها، وأتجنّبها، لكنّه لم يفعل ذلك. وقف فوقي فاتحًا فمه الكهف، ونظر إليّ بعينَيْن جهنّميّتَيْن، كلّما رفعتُ رأسي أو تحرّكتُ تحتهُ يضربني بيده الضخمة على كتفي أو وجهي، فأتهاوى مرّة أخرى. كان لا بدّ أن أتظاهر بالموت أو بالتّحجّر، تحجّرتُ، والتصقتُ بالشارع، فقدتُ الإحساس بالمكان والزّمان، لا أتذكّر متّى شعرَ تحديدًا بأنّه ملّ من لعبتهِ معي، فتركني، ومشى متهاديًا واثقًا، كما يمشي كلبٌ منتصر، نعم، كما يمشي كلبٌ منتصر، لا أملكُ تشبيهًا آخر».

لم يتوقّف عن سرد قصّتهِ بتفاصيلها كلّها، وأنا جريحٌ طريح الأرض، أتابعهُ، وأتابع أنفاسي قبل الأخيرة. حاولتُ أن أفسّر له أنّ الكلاب ليست كلّها واحدة، ولكنّه كان يسمعُ نفسهُ فقط:

" افهمني، ليس لخوفي علاقة بطفولتي الهشّة وعزلتي أو تكالب الدنيا عليّ، هو خوفٌ من أنّني صرتُ قادرًا على التّحجّر والالتصاق بالجدران والشوارع، حتّى إنّني كُنتُ أعود أحيانًا إلى البيت محمّلاً بغبار المارّة في ذلك اليوم، عشرات ومئات المارّة وكلبٌ واحدٌ أسودُ عملاق يُفاجِئني دائمًا في لحظات غير متوقّعة. في هذه الحرب، كما تعرف، صارت الكلابُ أكثر منَ المارّة، ولكَ أن تتخيّل كم جدارًا حملتُ معي إلى البيت، وكم شارعًا صرتُهُ».

كلانا كان ينزفُ في تلك اللحظة من الهدوء في الحيّ الّتي تعقبُ القصف، هو ينزفُ كلامًا، وأنا دمًا، بفعل الشظايا التي اخترقتْ جسدي. خلا المكانُ من الناس الّذين هربوا إلى البيوت والملاجئ، وانشغل آخرون بالبحثِ عن معارفهم تحتَ الرّكام. كان مُمدّدًا بجانبي، وحينما تأكّد أنّه لم يُصَبْ بأذى، جلس بهدوء، وراح يحكي لي عن خوفه.

بفطرتي، كُنتُ أعرفُ أنّه شجاعٌ، لا يهابُ الموت، ولا يهرب من ساحات القتال، كُنتُ شاهدًا ،بفعل جلوسي الدائم أمام البقالة، على مشاركته في مقدّمة المظاهرات، وعلى مهارته في انتشال المصابين من البيوت وركامها. حينما كان الآخرون يلوذون ببيوتهم أو بالفرار، يكون هو متنقّلاً بينَ الرّكام، يبحثُ عن ناجين، والطائراتُ ما زالت تحوم فوق الموت، ولكنّه اختار أنّ يحدّثني عن ضعفه وخوفه، ربّما لأنّني كُنتُ ضعيفًا خائفًا ساعتها!

"من حظّكَ أنّكَ كلبٌ أبيض».

قالها وهو ينزعُ الشظايا من بطني، ويلفُّ جراحي بقميصهِ.

كُنتُ سأقولُ له إنّني لم أمشِ يومًا في الشّارع، كما يمشي كلبٌ منتصر، كُنتُ دائمًا كلبًا مهزومًا.

كلبًا أبيض مهزومًا.

الطلبيّة C345

- الطلبيّة رَقْم C345 ما زالت تحتاج إلى بعض التشطيبات، أحتاج ليلة واحدة فقط، وسأنتهي منها، أرجوكَ.

راح ينقلُ عينَيْه بين موظّفته النشيطة والزّبون الجالس في أقصى الغرفة. مهارتها في العمل وسعيها نحو الكمال صارا سببًا في تأخّر بعض الطلبيات وتذمّر الزبائن الّذين تتوقّف حياتهم فعليّا مع ساقَيْن مبتورَتَيْن، وتظلّ معلّقة في انتظارِ أطرافٍ صناعيّة مناسبة.

مال نحوها، وهمس لها:

- لا لا، أرجوكِ أنتِ. الزّبون ينتظرُ منذُ شهرٍ، ولن أسمح بالتأخير هذه المرّة. وهذا أمرٌ غير قابل للنقاش.

استسلمتْ لقرار مدير المصنع.

عادت إلى زاويتها في قسم تجهيز الطلبيّات قبل تسليمها للزّبائن. من بينِ كومةِ الأطراف المُبعثرة، طلّت عليها ورقة، تحملُ رسالةً قصيرةً:

"لقد استبدلتُ براقصكِ الرّاحل آخرَ أعتقدُ أنّه يناسب عرضكِ أكثر. جرِّبيه (الطلبيّة رَقْم C143 ، على الرّفّ رَقْم 16). أرجو أن يرضيكِ أداؤهُ.

محبّتي»

رسالة قصيرة، كانت كافية كي تُربكها. هناكَ مَنْ يعرفُ سرّها، وربمّا يعرفُ أكثر منها، وأكثر ممّا يَجِبُ، لدرجة أن يجدَ بديلاً مناسبًا لراقص، عوّلت عليه كثيرًا. هل يعني هذا أنّه يعرفُ أيضًا حَيْرتها دون أن تُصرّح بها؟

كانت متردّدة بشأن الراقص الأخير، ولكنّها لم تفكّر باستبدالهِ لضيق الوقت. العرض بعد أسبوعَيْن، والطلبيّات كلّها ستتوزّع على الزبائن خلال الأسبوع . أجّلتْ أسئلتها كلّها، فلا وقت لديها الآن لتنشغل بشريكٍ، فرضَ نفسهُ عليها، لا وقت ما دام العرض هو مشروعها الأهمّ.

في السادسة مساء، غادر العمّالُ كلُّهم المصنعَ، آخرهم كان الشّابّ الأصمّ المسؤول عن قسم التسليم، أحكمَ إغلاق الأبواب كلّها، وغادر هو أيضًا. بعد ساعةٍ، كانت تتسلّل إلى المصنع كعادتها منذ شهرَيْن من الباب الخلفيّ، بمفتاح نسخته خلسة من الشّابّ الأصمّ.

- هيّا، أيّها الكسالى، لا وقت للنوم، هناك راقص جديد سينضمُّ إلينا بتوصية من صديق مجهول. أرجو أن يكون أهلاً للرقص معكم.

أنزلت الصّندوق رَقْم C143، وأخرجتْ راقصها الجديد. ألقت نظرة على التفاصيل المرفقة، وهزّت رأسها برضا.

- دعنا نرَ إمكانياتكَ في الرّقص، أيّها التلميذ.

أدارت قرص الموسيقا، اصطفَّ المشاركون كلٌّ في مكانهِ المتّفق عليهِ، ودونَ تدخّل منها، تقدّمَ الراقصُ الجديد، ووقف في مكانه بينَ المشاركين. أعطت إشارة البداية، ووقفت تراقبهم من زاوية الغرفة. تسارعت نبضاتها، وهي ترى لأوّل مرّة من شهرَيْن عرضًا راقصًا متكاملاً ومدهِشًا، وكأنّ المشارك

الجديدَ بثَّ فيهم روحًا جديدة، نشطة وحُرّة. أيُّ حركات متناسقة! أيُّ خفّة هذه! وأيّ دقّة في الانتقال السلس السريع على أنغام الموسيقا!

تهاوت في مكانها، ثمّ فكّت ساقَيْها، واحتضنتْهما. بكتْ كما لم تبكِ منذ سنواتٍ. «ماذا تقولان، أيّتها الساقان؟ هل تفخران بما تحملانِ من جسدٍ ورأسٍ؟ ألم يكنْ ذاك العناء كلّه مُجديًا، أن تحملا وجعي وحقدي واحتقاري لكما؟ كيف كان يمكن أن أحبّكما وأنتُما ندبة بشعة في الفراغ؟ أعرف أنيّ قد آلمتُكُما كثيرًا خلال السنوات الماضية، أعرف كم مرّة وددتُما القفز من النافذة، وتَرْكي وحيدة بائسة. ماذا تقولان الآن؟ حان الوقت كي نتصالح على رقصة «العنقاء».

في الصّباح، وبساقَيْن ودودَتَيْن، كان عليها أن تتركَ في صندوق البريد عشرين دعوة موقّعة من جمعيّة وَهْميّة.

(عزيزي/عزيزتي صاحب الساقَيْن الجديدَتَيْن

ندعوكَ لحفل استقبالكَ عضوًا في نادي «الخطوة الأولى».

لن تكون هناك كلمات مسؤولين أو خطابات مكرّرة، سنضحك ونمشي ونغنّي ونتابع عرضًا فنّيًّا، وقد نرقص أيضًا، مَن يدري؟

نحبّكم

نادي «الخطوة الأولى»)

ستصل الدعوة إلى عناوين أصحابها، سيرميها البعض من نافذته، وسيلبّي آخرون الدعوة.

سيصلون إلى الحديقة، حيثُ يُقام احتفالٌ بتدشينها.

توزّعوا على الكراسي الشّاغرة، وهي تتابع من زاويتها البعيدة عيونهم الحائرة، وملامحهم البائسة. قبل أن يتجمّع الحضور لسماع كلمات الترحيب، أدارت قرص الموسيقا الّتي غطّت على الأصوات الأخرى جميعها، وشدّت الآذان والوجوه نحو وسط الحديقة.

تململت الأطرافُ تحت الأجساد، ثمّ نهضت بأصحابها المندهشين نحو الساحة.

انتظموا جميعًا كلٌّ في مكانه، وراحت الأطرافُ ترقصُ بخفّة ونشاط، تُحَرِّك مع كلّ نغمة أجسادًا لحميّة شبه ميّتة، وتسري فيها الحياة كتدفُّق الماء في صحراء قديمة، انسابت بقيّة الأعضاء، وتشابكت الأيدي، وضحكت العيون.

انتهى العرض بتصفيق حادّ وانحناءة امتنان لجنديّ مجهول.

لم تنقطعِ الرسائل القصيرة المُندسّة بين أكوام الأطراف الجامدة.

" كان عرضًا مذهلاً، أفخر بكِ»

"أعرف، لقد رأيتُ ذلك في عينَيْكَ. كُنتَ هناك»

" كُنتُ، وكُنتُ سعيدًا برقصة «العنقاء»، وبكِ»

"ما رأيكَ بـ» شَغَف» عنوانًا لعرضنا القادم؟»

"عرضنا؟ تعالي نفكّر معًا غدًا صباحًا. أعرف كيف تحبّين القهوة»

" وأعرفُ كيفَ تسمعُ الموسيقا»

كانت الرسالة الأخيرة.

ثقبٌ أبيض

منذ انتقلتُ للعيش في هذا البيت، وأنا أرتعدُ من فكرة أن يستسلمَ صاحبه ذات صباح لإلحاح زوجته المتواصل، ويسدّ ذاك الثقبَ، لن يصمدَ كثيرًا، وهي ما تنفكّ تُذكّرُهُ أنّ من أهمّ وظائف الرجل في المنزل سَدّ الثقوب.

أرتعدُ من حائط لا ثقبَ فيه، من عالم بجدران ملساء متساوية.

كلّ صباح أتفحّص أشيائي الجامدة؛ كنبة سوداء ضخمة، أمضي نهاري أُعارك تجويفها، مرآة مستديرة على يميني، تُربك سنواتي، وثقبًا عميقًا في الحائط، أسرق منها مجتمعة شظايا حياة قديمة، وأخرى مستمرّة على شكل ومضات.

أتذكّر جيّدًا أنّه كان لي بيتٌ صغير، وبمواجهة السرير الّذي أنامُ عليه أنا وطفلتي في غرفة النوم، كان ثقبٌ واسع. أتذكّر أيضًا أنّهُ جاء نتيجة محاولات لتعليق صورة كبيرة، تجمعني أنا وهي، وكان المسمار يسقط، وتسقط معه الصورة. أكثر من مرّة تكسّر زجاج الإطار، وأكثر من مرّة استبدلتهُ آخر، ثمّ انتهيتُ إلى تثبيت الصّورة بحاملٍ خشبيّ على منضدة بجانب السّرير.

استعنتُ بأخي (غاب اسمهُ عنّي) ليُرمّم جدران البيت، ويُجدّد طلاءها، وكُنتُ أُنبّههُ ألاّ يقرب ذاك الثقب، ويتركهُ على حالهِ، يضحكُ ويردّ:

- الناسُ جميعهم يسدّون الثقوب، وأنت تحرسينها كآخر نفقٍ للنجاة.

لم أعرف أنّها فعلاً كذلك حتّى قالها أخي، هي نفقُ نجاة وحيد، وآخر مسارب للهروب. صرتُ كلّما أطبقت الدنيا عليّ، وخشيتُ أن تبتلعني الأرض، أسحبُ طفلتي النائمة، وأتسلّل إليهِ بخفّة وسهولة، كلّ لجوء إليه كانَ يحميني وإيّاها من حربٍ وشيكة، ويدٍ ثقيلة عمياء. نخرجُ منه، وقد هدأ الكون.

في مكانٍ آخر عشتُ فيه، أظنّه مستشفى، كُنتُ بين صحوٍ وآخر، أبحثُ عن نفق نجاة على شكل ثقبٍ في الحائط، إلى أن وجدتُهُ في ممرّ طويل، يصلُ بين غرف المرضى. حينما اختفى ذات يوم وراء لافتة كبيرة، تحملُ تعليماتٍ لزوّار المستشفى (من بينها تحذيرٌ بعدم التّدخّل في شؤون المرضى) استعنتُ بثقبٍ آخر في رأسي. كان موجودًا دائمًا، وكُنتُ أتجاهلهُ، وأتجنّبهُ، فالتّسلّل إليه يُكلّفني غيابًا تامًّا عن الوجود، يصيرُ رحلة مُرعبة في ممرّات ضيّقة وغابات مُظلمة وأيادٍ سوداء تسحبني نحو الهاوية. لم أكن أخرجُ منهُ إلاّ وقد انتَزع جزءًا منّي، لا أنجحُ أبدًا في استعادته، يظلُّ هناك، يموتُ، ويتعفّن.

منذ وصلتُ إلى هذا البيت، قبل عامٍ أو عامَيْن أو أكثر، وأنا أعيشُ بآخر جزء منّي، ولن أغامر بهِ قبل أن أعودَ لطفلتي. أرتعدُ من فكرة أن تظلّ هناكَ وحيدة، أن يموتَ الجزء الذي يحملني إليها.

الثقب والجزء أرجو أن يصمدا.

لماذا يخشى الناس ثقوب الحائط؟ لماذا تلحُّ صاحبة المنزل على زوجها أن يسدّه؟ قلتُ لها هذا الصّباح إنّ طفلتي تنتظرني داخلهُ، فردّت ببرود

دون أن تُبعِدَ نظرها عن شاشة التلفزيون: داخلهُ؟ أرجو أن تخرجَ منهُ قريبًا، فهي لم تدفع لي مستحقّات الاعتناء بكِ منذ ثلاثة أشهر.

لا تذكر اسمها أبدًا، ولا تقول سوى هي أو ابنتكِ، وأنا أتذكّر أنّني منحتُها اسمًا جميلًا، فيه موسيقا وشَجَن.

لم تخرج مرّة وحدها من هناك، فأنا أحملها وهي نائمة، وأخرج بها وهي نائمة أيضًا، لن تعرف طريقًا للعودة. عليّ أن ألحق بها هناك قبل أن تصحوَ، وتُربكها الوحدة، ففي صباح ما، سيرضخ الزوج لاختبار الأدوار الرجوليّة في البيت، وسيسدُّ الثقب، وستكون فرصتي الأخيرة، الوحيدة.

بآخر جزء منّي، استجمعتُ عظامي الهشّة وذاكرة قديمة، وتجاوزتُ العجوز التي ترصدني من المرآة ساعات طويلة، تخلّصتُ من الكنبة السّوداء التي ظلّت متّخذة شكل مؤخّرتي، وبخفّة كُنتُ داخل الثقب الأبيض.

غمرني الضوء، وعادت التفاصيل القديمة واضحة ومرتّبة: اسمي، عمري، حزني، فرحي، خوفي، طفلتي الّتي صارت أمًّا، ما اسمها؟

سأظفر به حالًا. سأناديها به.

هل أكون قد نسيتُهُ في هروب قديم؟

مسمارٌ أسود عملاق كان يلاحقني سادًّا الثقب عليّ وطريق العودة.

The Liberator
(قصّة حلم)

لا أعرف كيف امتلكتُ الجرأة كي أقولَ لهُ مباشرةً:

سأكتبُ قصّتَكَ.

كانت المرّة الثالثة التي لمحتُهُ فيها خلال إقامتي في ذلك الفندق الساحليّ، يجوبُ قاعة الفندق مثل مُحارب لاتينيّ ساحر، خرجَ لتوّه من فيلم The Liberator، بفارق السّلاح والزّيّ. همستُ لنفسي: لكلّ عصرٍ زيّهُ وسلاحُهُ، أمّا الحُرّيّة، فهي واحدة في العصور والحروب كلّها أيضًا. كانَ يضحكُ، ويغمزُ بعينه، ويلمس الأكتاف المكشوفة برقّة، ثمّ يميلُ على إحدى المُسنّات الشقراوات، ويهمسُ لها شيئًا، تضحكُ بدلالٍ، وتعطيه يدها، ليسحبها نحو حلبة الرقص الّتي تتوسّط القاعة.

يراقصها بمهارة مدرّب رقص محترف، يتحرّكُ بخفّة وأناقة، وما إنْ تنتهي الموسيقا لا ينسى أنْ يُقبّل ظاهر يدها، وينحني أمامها مصفّقًا. يعودُ بعدها لدورة أخرى من الغزل والرقص.

سأكتبُ قصّتَكَ. قلتُها أردُّ على تحيّة منه، تتلخّص في إمالة رأس رقيقة نحوي.

ابتسم كَمَنْ لم يعد يفاجئُهُ شيءٌ في هذا العالم.

- أنتِ كاتبة؟

- لستُ كذلك، ولكنّي أحاول أن أكتب.

- لا تعرفينَ الكثير عنّي.

صحيح لا أعرفُ الكثير عنهُ، لا أعرفُ شيئًا تقريبًا، ولكنّي سأختلقُ تفاصيلَ مُثيرة تشبههُ. هكذا أكتبُ عادةً. كان عليّ أن أقولَ لهُ: «سأكتبُ قصّة عنكَ» تختلفُ كثيرًا عن «سأكتب قصّتَكَ». الأولى تتركُ لي مساحة واسعة للتّخيّل والكذب.

- أظن أنّني لن أقرأها يومًا، ما دمتِ ستكتبينها بلغتكِ.

- وأنا أظنّ ذلكَ أيضًا.

راقبتُهُ من مكاني حتّى نهاية السّهرة، وكان هو بين الحين والآخر يلتفت نحوي كَمَنْ يطمئنُّ على تفصيل من تفاصيل حياة، تُشبهه.

سأجعلهُ في الخامسة والعشرين من عمرهِ، وأتركهُ دون اسم. لا أحبُّ الأسماء في قصصي.

وُلدَ ونشأ في إحدى القرى المُحاذيّة للمدينة الساحليّة. تعلّم في مدرستها، وفيها أنهى دراستهُ الثانويّة. يبدو أنّه لم يكن متفوّقًا في دراسته، ربمّا أعلى من المتوسّط، ولكنّه يعرفُ أنّه لن يعيش حياة الشباب في قريته، لن يعمل في الزراعة أو التدريس أو سائق شاحنة. لن يكون طبيبًا أيضًا كما تحلم أمّه، ولن ينتقل إلى العاصمة، حيثُ أفضل الجامعات. حلمُهُ لم يُغادر تلك الفنادق الفخمة الّتي تنتشرُ على الشاطئ، والّتي يعتاشُ منها نسبة كبيرة من أهل القُرى.

أحاول أن أجدَ له حلمًا يُناسبُ ملامحهُ الملحميّة، هل كان يعي تفرّده

بتلك التفاصيل الرائعة؟ سأجعلهُ كذلك، ولأنّه كذلك كان لا بدّ أن يرسم حلمًا مختلفًا، جريئًا وخارجًا عن العادة.

كان يعرفُ أنّ الطريقَ إلى العمل في إحدى الفنادق الفخمة التي تنتشرُ على الشاطئ ليست سهلة، خاصّة إذا كان يطمعُ في وظيفة أكبر من نادلٍ أو عامل نكرة في المطبخ. هناك حاجة للغات أجنبيّة، ومعرفة لأصول اللياقة والإتيكيت والكثير من المهارات الاجتماعيّة الّتي ستُضاف إلى ملامحهِ المُثيرة.

كيف وصل إلى العمل في الفندق؟

لماذا يجب أن تجيب القصّة عن هذا السؤال؟

ولماذا لا أكون قد تورّطتُ في حلمهِ وهو ما يزال هناك بعيدًا، يُراود الحلمَ عن نفسه؟

قد يكون ماسح الأحذيّة الذي لمحتهُ قبل يومَيْن في السوق الشعبيّ، يجلسُ وراء صندوق خشبيّ ملوّن، كُتب عليه: «الحلم يبدأ من حذاء نظيف» هو الراقص الذي تخلّى عن قصّتي في شبابهِ، وظلّ يُلمِّعُ أحذية الحالمين.

هو أيضًا كانت له ملامح سيمون بوليفار في نهاية الفيلم.

وأنا أُحاسب موظّف الاستقبال في الفندق عند مُغادرتي، سلّمني رسالة صغيرة:

- تفضّلي، مدام، أحدهم ترك لكِ هذه الرسالة.

أحدهم؟

رسالة من جملة واحدة فقط بالإنجليزيّة:

" مَنْ يستطيعُ إيقاف الرّيح؟ مَنْ؟»

قرأتُ الرسالة، ثمّ كتبتُ في أسفلها:

"لا أحد، لا أحد»، وسلّمتُها إلى موظّف الاستقبال.

كانت الجملة الشهيرة التي قيلت على لسان سيمون بوليفار في فيلم The Liberator.

لم أعرف أيًّا منهما تسرّب إلى قصّتي الّتي لم أكتبها.

سيمون بوليفار أم شبيهه؟

ماسح الأحذية كان خارج القصّة/الحلم.

حياةٌ من خشب

يخالُ الناظر إلى الصّورة الكبيرة المُعلّقة على حائط الصالون الواسع أنّ فيها خللًا ما. هو خلل لا يستطيعُ تحديده من النظرة الأولى، وربمّا ليس من الثانية، ثمّ لا حرجَ عليه إن أدام النظرَ إليها، فهذه الصور الكبيرة وإطارها المختار بعناية عُلّقت هناك، كي ينظر الجميع إليها، ويُدقّق في تفاصيلها الثابتة. لكنّ هذه الصّورة ليست كصور الرّفاف الصخريّة الصّامدة التي تطلّ منها وجوه مبتسمة، ونظرات متعلّقة ببعضها أو بالمدى المُمتدّ أمامها. هي صورة قديمة وربمّا باهتة قليلًا، النظرات ليست عاديّة، أو ربمّا لعبة النظرات ليست مألوفة.

- أرجوكِ، يا عروس، انظري إليّ، هنا هنا نحو الكاميرا. لا لا ليس نحو هذه الزاوية! نعم، أنتَ أمسكْها من يدها، وانظر في عينَيْها، وأنتِ أيضًا انظري في عينَيْه، لا، ليس هكذا! يا إلهي، ما هذه الورطة؟ أرجوكِ، انظري نحو عين الكاميرا أو نحو عين عريسكِ!

- لا لا تنظري نحو هذا المارد اللعين، قالها في سرّه، ثمّ استسلمَ.

وتوقّفت الصورة عند تلك اللحظة، جمعتُها كلّها بوضوح وبساطة. عريس جامد الملامح ينظرُ إلى الفراغ أمامهُ، وعروسٌ تنظرُ إلى يمينها الذي يظهر منه طرف خشبيّ ضخم لشيء يشبه الخزانة. هكذا يتمّ تعليب الزّمن

دون مراعاة تاريخ انتهاء الصّلاحيّة، ومعه نحفظ في الإطار بعض القناعات الخفيّة، وبعض الرضا أيضا لأيّام نسأل فيها: هل حقًّا مضتْ عشرون سنة؟ ثلاثون؟

المرآة المعلّقة في غرفة النوم بما تحملهُ من ندوب بشعة على سطحها تُطيح بأكذوبة الصّور والزّمن المعلّب. أمامها تُحصي العروس القديمة التجاعيد الجديدة، وتنعى النضارة الزّائلة، ثمَّ تُربِّت على كتف القناعة والرضا قبل أن تنتهي صلاحيّتهما.

القناعة أنّها تزوّجت مقابل ثروة حضاريّة على شكل خزانة خشب عملاقة. هي القناعة الّتي أورثتْها الرضا، وكلاهما كانا كفيلَيْن أن تعيش. لا تعرف إلى متى يعود تاريخ هذه الخزانة، ولكنّها كانت سببًا في حياة زوجيّة هادئة لجيلَيْن أو ثلاثة من النساء، تنتهي بحماتها. وتبدأ بها جيلاً رابعًا.

هذه تزوّجت مقابل عشر أساور ذهب، وتلك مقابل غرفة واسعة أنيقة في بيت حماتها، وأخرى ضرّة مدلّلة على زوجة عاقر.

ووردة تزوّجت مقابل خزانة خشب تلمُّ بين دفّتيها المتينتيْن فرشات صوفٍ سميكة.

كانت عروسًا نضرة حين سمعتْ إحداهنّ من وراء الحائط تقول للأخرى بينما كانت هي تنشر غسيلها :

- تزوّجت مقابل خزانة. الكلّ يعرف ذلك. أمّها لم تُخفِ ذلك يومًا، يقولون إنّها في يوم زفاف ابنتها قالت بين زغرودة وأخرى «ابنتي العروس عندها ما لا تملكه واحدة منكنّ! خزانة خشب من الأرض إلى السقف، عشرة رجال لا يحرّكونها من مكانها.

ماردٌ من خشب يطغى على حضور عروسَيْن في صورة زفافٍ تقليديّة. وقفا بجانبه، يُرتّبان نظراتهما ووقفتهما المرتبكة.

كانت تكنّ له تقديرًا عظيمًا، لذلك العملاق الخشبيّ. أمّا زوجها، فكانت مطمئنّة أنّها تقوم بواجبها اتّجاهه زوجة مطيعة ومدبّرة، ولا مجال للمقارنة بينهما. الغلبة للأوّل، ولولا شموخه في غرفة الصالون الواسعة، لخالطها شعور بأنّها سيقت إلى بيت الزوجيّة كنعجة عجفاء. حافظت عليه كما تحافظ على كرامتها. مجوهراتها القليلة باعتها كلّها، ملابسها لم تعد تحتفظ إلا ببعض قطع، لم تتلفْ، ولم تتلاشَ رائحة الذاكرة فيها.

إلا الخزانة! حرصتْ على الاعتناء بها كواحد من أولادها الأربعة. طقوس تنظيفها وترميم أطرافها التي تخدشها مكنسة عمياء أو عابر مُتكاسل، كانت تحاكي طقوس الفرح في أسرتها القريبة. وأحيانًا تتفوّق عليها. هذه المقارنة في أعماق تفكيرها لم تكن تُسبّب لها الحرج.

بيوت القرية معظمها استغنت عن فرشات الصوف واللحف الثقيلة، فلم تعد هناك حاجة إلى خزانة كبيرة مبتورة الأبواب، يحفظون فيها فراشهم. قلّة من البيوت كانت تجعل من غسيل الفرشات وتنجيدها موسمًا احتفاليًّا، لتُرتّبها بعدها زاهية في خزانة خشب متواضعة. وهي كانت مواسمها أكبر من غسل فرشات، لم يعد لهنّ استخدام إلا نادرًا، كانت مواسم لإعادة البهاء لفكرة أنّها زوجة ممهورة، وأنّ مهرها لا يقلُّ عن أيّ من قريناتها المتزوّجات.

كبر أبناؤها، وزوّجتهم جميعًا دون قلقٍ كبير. لم تعرف أنّها ستتعوّض بكثير منه، ذاك القلق عندما يتقدّم لابنتها شابٌّ، لا يملك سوى غرفة

صغيرة متواضعة، اقتسمها من بيت أهله، وأنّ ابنتها ستحبّه، وتتمسّك بالزواج منه رغم شُحِّ حاله. لم تسمح قديمًا لنساء الحيّ أن يسخرنَ من حالها، أو لم ترضَ أن يتسلّل إلى قلبها إحساس بأنّها أقلّ من أيّ واحدة منهنّ. ولكنّها الآن وهي تُزوِّج ابنتها مقابل لا شيء، كيف ستحميها من أن تصغر أمام صبايا القرية؟ لا يبدو أنّ هذا الأمر يعني ابنتها من قريب أو بعيد، فكيف ستحمي نفسها وهي تسلّم ابنتها عروسًا مقابل لا شيء؟

لا شيء.

في ساعات الصّباح، والبيت كلّه منشغلٌ في الاستعداد لزفاف البنت الوحيدة توقّفت أمام البوّابة الكبيرة شاحنة عملاقة، نزل منها خمسةُ رجال أقوياء بعضلات، تكاد تخترق أكمام قمصانهم الضّيّقة.

خلال دقائق، كان الرجال الخمسة يحملون بصعوبة خزانة ثقيلة، ويضعونها في الشاحنة متّجهين نحو بيت العروس هديّة من أمّها. العيون التي كانت تتفحّص العروس الخجولة راحت تُتابعُ المشهد المُثير، وتراقب الأمّ وهي تنبّه الرجال ألاّ يخدشوا حملهم:

على مهلكَ، على مهلكَ! احذر هذه الحافّة، انتبه، يا رجل، هناك عتبة! أووووف ألا تفهمون كم تساوي مثل هذه الخزانة؟

ربّما أرادت أن تقول: ألا تعرفون أنّني قايضتُ بها حياة كاملة؟

قد لا يكون أحدٌ منهم يعرف ماذا يعني هذه الّتي قايضت بها حياة كاملة؟ هو ليس أكثر من خزانة ثقيلة مبتورة الأبواب.

"طلعة خزانة أم طلعة عروس؟»

لا بدّ أنّ هذه العبارة كانت على لسان كثيرين أو في أقلّ تقدير حضرت في محاولتهم لنقل تفاصيل العرس الغريب لمَنْ فاتته المُشاركة. في أحاديث النميمة الصباحيّة، كانت حاضرة بقوّة، لا شكّ في ذلك.

"طلعة خزانة أم طلعة عروس؟»

- لو حملوا معهم الفرشات أيضًا. ألم تكن هذه الفرشات حجّة للإبقاء على الخزانة؟ الأشياء حجّة الوعاء، أيُّ ظلمٍ هذا!

لأيّام طويلة، وبعد أن احتلّ صالون بيتها فراغ واسع، ألحّ عليها سؤال غريب:

أليست الحياة التي عشتُها هي وعاء أيضًا؟ وأيّ حجج تعلّقتُ بها للإبقاء عليه، أقصد عليها؟

بعد أيّام، كانت أريكة الزّوج ذات العشرين عامًا تحتلّ المساحة التي تركتْها الخزانة وفوقها مباشرة صورة الزّفاف القديمة الباهتة. الزّوج لم يسأل، ولم يعترض. جلس على حافّتها، وصرخ متجهّمًا كعادته طالبًا قهوته.

ضحكت من قلبها، وهي تقدّم له فنجانه.

ليس هناك أمرٌ مُسلٍّ أكثر من زوجٍ خشبيّ يلحُّ في طلب قهوته الحلوة.

رجلٌ يبحثُ عن عينَيْهِ
(من رسائل القرّاء)

من مئات الرسائل الّتي تصل بريد الصحيفة اخترنا هذه المرّة رسالة من قارئ، آثر أن يُوقِّع اسمهُ بـ ر.ع. طالبًا نشرها في زاوية «من رسائل القرّاء»، يمكنني القول إنّها ليست رسالة عاديّة، أو ليست من نمط الرسائل التي تصل بريدنا عادة، ليس لتفاصيلها الإيروتيكيّة الغامضة، ولا أُقلّل من شأنها طبعًا، بل لأنّها تُلقي الضوء على أزمة أخلاقيّة، ستثير الكثير من الردود واللغط. أراهن أنّ هذه الرسالة ستُربككم كما أربكتْني، أنا المتمرّس في العمل الصحافيّ منذ عشرات السنين.

سنقوم بنشر تعليقاتكم على محتواها في العدد القادم.

رئيس التحرير

(نصّ الرسالة كما وصلت مكتب رئيس التحرير قبل أسبوع، وتتفرّد الصحيفة بنشرها)

"ر.ع يبحثُ عن عينَيْه»

هي رسالة بوح لا أكثر، أو تقيّؤ إراديّ إن شئتُم. لا أطلبُ تفهّمًا ولا تسامحًا من أحد، هذه أمورٌ لم تكن تعنيني يومًا، ولا تعنيني الآن. كلّ ما في الأمر أنّني مثقلٌ جدًّا بما أحمل، ولا أثق بخزعبلات المعالجين النفسيّيْن، كما أنّني لا أجدُ بين أصدقائي مَنْ يمكنه أن يتركني أبوح أمامه بما يخنقني

دون أن يدخلَ بيني وبين جِلْدي، ولا يعود يخرج من هناك إلاّ وقد سلّم أنّني مجنون أهذي.

هذه الرسالة هي بديل مؤقّت عن وقوفي المرضيّ أمام المرآة، وتفقّد ما تبقّى منّي؛ وجهي، شعري، جسدي الرياضيّ، عضلاتي المفتولة بإحكام، كلّها ما زالت على حالها، إلاّ عيناي لا أراهما في المرآة، وأسأل كيف أرى انعكاسي ما دمتُ لا أراهما؟ لا أرى عينَيّ، أرى تجويفَيْن فقط، كهفَيْن أسوَدَيْن غارقَيْن في ظلمة عميقة.

أنا، ببساطة شديدة، أبحثُ عن عينَيّ.

لم يُنبّهني أحد أنّني فقدتُ عينَيّ، يبدو أنّني الوحيد الذي أرى ذلك.

لن أعتذر عن أيّ كلمة سأقولها هنا (ما عدا لغتي الركيكة، لستُ أديبًا ولا صحافيًّا، أعتذر) أو أيّ تصرّف، مرّة أخرى هذا شأني الخاصّ، أتدبّره بنفسي. لماذا أكتب، إذنْ؟

مَنْ يدري؟ قد يكون بينكم أيضًا من يبحثُ عن عينَيْه مثلي.

من أين أبدأ؟ منذ لاحظتُ أنّ تلك المرأة الخمسينيّة تراقبني تارّة من شرفة منزلها، وتارّة وهي تمرُّ أمامي، وأنا أعملُ في تشذيب الأشجار في حدائق القرية التعاونيّة. تنظرُ إليّ طويلًا، وتتابعني بنظراتها حتّى تغيب عنّي أو أغيب عنها.

لم تترك لي مجالًا كبيرًا للشّكّ في نواياها. بعد يومَيْن، كانت تقفُ أمامي، وتدعوني لفنجان قهوة في بيتها، كي تعرض عليّ أمرًا ما. استبعدتُ فكرة أنّها ستعرض عليّ العمل في حديقتها، نظراتها لم تكن تتفحّص

كفاءاتي الخضراء، أو عضلاتي المُثيرة، كانت تحدّق طويلاً في عينَيّ، وتكاد لا ترفعُ نظراتها عنهما.

بعد دقائق صَمْت مُربِكَة، فاجأتْني:» ابنتي في الخامسة والعشرين من عمرها، أُصيبت قبل أعوام بتصلُّب الشرايين، وهي ترقد في الغرفة المُجاورة شبه ميّتة، شبه حَيّة. اعتدتُ على هذا البَيْنَ بَيْنَ، بين الحياة والموت، كانت عيناها تخاطبانني، وتقولان الكثير، كُنتُ أسمعُ جيّدًا وأفهم، ولكنّها منذ شهر صمتتْ، أقصد عيناها توقّفتا في مكان ما، هل تفهمني؟ هل تعرف معنى أن تكون العيون خرساء؟ شهرٌ كامل، ولم تتلفّظ عيناها بكلمة واحدة، سترحلُ قريبًا، أعرف ذلك، سترحل دون أن تقول كلمة، وهذا يؤلمني.

هل تقبل أن تقضي ليلة معها في سريرها؟

أومأتُ برأسي موافقًا، إلا أنّه كان فارغًا من أيّ نيّة أو فكرة. هل كُنتُ أعي تمامًا ماذا يعني أن أكون هديّة الأمّ لابنتها الّتي تموت؟ لا، كُنتُ فارغًا من أيّ إحساس يمكنُ تسميتهُ.

- غدًا عيدها الخامس والعشرون، وقد يكون الأخير. ماذا أهدي فتاة تنامُ على قبر مفتوح منذ سنوات؟

- متعة عابرة؟

- لا، ليست المتعة، بل الدفء، لعلّه يكسر الجمود الجليديّ في عينَيْها، من حقّها أن تختبر دفئًا حقيقيًّا لحياة، سُجنت فيها تحت مسمّى كاذب. هل تفهمني؟

لم أفهم. أومأتُ برأسي مرّة أخرى.

في الغرفة المُجاورة قرأتُ عينَيْها، رأيتُ فيهما انعكاسي بكلّ وضوح وبؤس، رأيتُ وجهي وشعري وأنفي وكهفَيْن أسوَدَيْن كبيرَيْن. رأيتُ انعكاسي في مرآة جليديّة مشطورة إلى نصفَيْن، رأيتُ شريط حياتي كاملاً.

أعرف أنّ السؤال الذي يشغلكم جميعًا الآن هو هل ضاجعتُها؟ هل استمتعتُ؟ هل شعرتُ بمتعتها؟ أعرف أيضًا أنّ كلّ واحد منكم تمنّى لو كانت هناك كاميرا ترصد الحدث من أوّله لآخره، لو كان بإمكانه التّحكّم بها من بُعد حتّى يُسلّطها على الأعضاء الحميمة وحركاتها الآليّة.

أعرفُ أنّني منذ ذلك اليوم وأنا أبحثُ عن عينَيّ.

سؤال واحدٌ يُلحُّ عليّ دون رحمة: هل فعلاً كانت هي الميّتة الحيّة في تلك الغرفة أم أنّ كلَيْنا كان كذلك؟

حيًّا ميّتًا.

عشرون، بل أكثر
(في المحطّة الأخيرة)

وقفتُ في حديقة الملجأ أكثر من ساعة.

وقفتُ دون حراكٍ أنا وحقيبة جِلْديّة تتدلّى من كتفي. بماذا كُنتُ أفكّر قبل أن أُقدمَ على ما فعلتُهُ لاحقًا؟ في الحارس الّذي بلع ريقه مرَّتَيْن وهو يقلّب محتويات الحقيبة؟ لم يسأل، ولم أقدّم تفسيرًا. ولماذا يسأل؟ ألم يعتد على غرابة الزوّار العابرين من بوّابة حديديّة عملاقة وسور ضخم بشع إلى عالم آخر؟

- إنّها المحطّة الأخيرة.

هذا ما قالتْهُ عاملة الشؤون الاجتماعيّة دون أن تنظر إلى وجهي، ثمّ كرّرتها وهي توقّع بكلّ برود على أوراق النقل.

- إنّها المحطّة الأخيرة.

ماذا يفعل الناس فيها؟ ألا ينتظرون مثلاً كما في محطّات ليست أخيرة؟ لم تُجبْ عاملة الشؤون الاجتماعيّة عن سؤالي، ليس من اختصاصها أن تعرف ماذا يفعلون هناك، فوظيفتها تتلخّص في التوقيع على أوراق نَقْل الناس إلى هناك.

بلى، ينتظرون العَدَم واللا شيء. ومنى تُتقن انتظار العدم، منذ سنوات وهي تفعله.

لهم برنامج ميّت هنا بمواعيد ثابتة، ثمّ تتحجّر وجوههم في الغرف البيضاء، وفي قاعة الطعام، وفي حديقة الملجأ (ليست بائسة، كما يليق بالمكان)، وفي الليل وهم يحدّقون بالسّقف.

بماذا كُنتُ أفكّر وأنا أقف هناك في «المحطّة الأخيرة»؟ في ذلك كلّه.

تخيّلتُ وجه منى مُتحجّرًا في غرفتها البيضاء، في قاعة الطّعام، في الحديقة، وفي الليل وهي تُحدّق بسقف الغرفة.

كُنتُ ما زلتُ أحملُ الحقيبة الجِلْدِيّة. لم أستطع أن أحدّد مشاعري تجاه أيّ شيء، كان الأمرُ غريبًا، ولكنّه مريحٌ جدًّا؛ ألاّ أشعر بأيّ شيء. بقيتُ واقفة لساعة أو أكثر والأحداث تمرُّ أمامي مُتداخلة، سريعة وغير مُكتملة. كان ينقصني أن أرفع إصبعي وأضغطَ على حدث ما، ويتوقّف عند صورة جامدة.

- منى طفلة بجديلة تتراقص على ظهرها وعينَيْن خضراوَيْن باردَتَيْن.

- منى تنظر مباشرة نحو الشمس، إلى أن تدمع عيناها. تحاول أن تنفلت من يدي، وهي تحجب عنها أشعّة الشمس القاسية.

- منى نائمة في سريرها. جميلة.

- منى تصرخ كالمجنونة، كالمجنونة؟ أقصد تصرخ بهستيريا. ما الّذي كان يزعجها وقتها؟

- منى تختارُ طقمًا جديدًا من الملابس الداخليّة للمرّة العاشرة، العشرين، المئة.

- طفلتكَ تعاني من إعاقة عقليّة.

- ماذا تعني؟

- طفلتكَ مُعاقة عقليًّا.

- ولكنّها جميلة، بل رائعة الجمال.

- صحيح.

لم يقلْ إنّها المحطّة الأخيرة، وهي كانت كذلك منذ خمسة عشر عامًا، وأنا كُنتُ معها فيها.

كُنتُ أستعرض تلك الصّور، وأنا أقفُ وحقيبتي الجِلْدِيّة نواجه المبنى الشاحب القديم. لم أفكّر فيها، استعرضتُها فحسب، وتوقّفتُ عند بعضها. كُنت أسمع الأصوات الآتية من الداخل، داخلي أنا، المبنى كان صامتًا شاحبًا.

اتّصلتْ بي مديرة المدرسة الخاصّة الّتي كانت منى ترتادها منذ عشر سنوات، وقالت بصوت يرتجف: أرجو أن تأتي إلى المدرسة في الحال. صوت منى وصلني أيضًا، ربمّا لم يكن صوتًا، بل نحيبًا متقطّعًا ونواحًا مُفجعًا. خرجتُ من العمل مسرعة، وليس في ذهني سيناريو محدّد لما قد حدث.

في غرفة المديرة، حاول معلّم ومُعلّمة تهدئة منى الّتي تكوّرت في إحدى الزوايا، وتثبيتها في مكانها. تراجع نواحها حينما رأتْني، وحلّت مكانه نظرة زجاجيّة باردة، تناثرت في وجهي. تصدّعتُ.

قالت المديرة مرتبكة: لا أعرف ماذا أقول لكِ، منى استغلّت خروج المعلّمة من الصّفّ، وخلعت ملابسها، وظلّت بملابسها الداخليّة، وراحت تعرض نفسها على زملائها، وتُقبّلهم، كانت تسألهم هل تتزوّجني؟ عندي عشرون طقمًا ورديًّا من الملابس الداخليّة. بصعوبة بالغة، سيطرنا عليها، وألبسناها ثيابها، وها أنتِ ترين حالتها.

- قبل يومَيْن تسللتْ إلى مدخل الشّقّة، ووقفتْ هناك بملابسها الداخليّة، تسأل المارّة: هل تتزوّجني؟ وقبل أسبوع، اقتحمت غرفة أخيها، وقالت لصديقه الذي كان يزورنا للمرّة الأولى: هل تتزوّجني؟ كانت ترتدي طقمًا حريريًّا أبيض من الملابس الداخليّة. انهار أخوها. لم يكلّمني منذ أسبوع. اشتريتُ لها الكثير منها، الكثير الكثير، عشرة، عشرين ربمّا أكثر.

قلتُ ذلك كلّه دون توقّف، ودون أن أرفع عينَيّ عن منى، طفلتي المسكينة، طفلتي المُعاقة، طفلتي المجنونة، طفلتي الجميلة.

كان الجميع ينظرُ إليّ بفزع.

أخذتُ منى، وخرجتُ من المدرسة التي أحضرتُها إليها قبل عشرة أعوام، مدرسة المجانين كما يُسمّيها أهل الحيّ وسائقو حافلات الطلاّب (المجانين) وعمّال النظافة المقهورون وزميلتي في مدرسة العقلاء. المعلّمون كانوا يباهون أنّهم يعملون في مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصّة، وهي رسالة عظيمة. أنا لم أتبنَّ أيًّا من التّسميَتَيْن، هي مدرسة طفلتي منى، طفلتي التي تجاوزت عامها الثامن عشر. وستبقى مدرسة طفلتي منى حين أمرّ بها بعد أعوام من الآن، حتّى بعد أن لفظتْها خارجها، بسبب «سلوكيّات غير سويّة» أو «تدهورٍ مُفاجئ» أو ربمّا « نهاية مُتوقّعة» كما شخّصها أطبّاء هذا الملجأ، المحطّة الأخيرة.

هم لا يعرفون شيئًا، لا يعرفون أنّ طفلتي كانت تحلمُ بالزواج، أقصد بالزفاف وفستان العرس وطقم ورديّ من الملابس الداخليّة. لا يعرفون أنّها كانت تطلبها بهستيريا، وكُنتُ أُلبّي باستسلام وصمت.

تذكّرتُ وأنا أقفُ هناك في حديقة الملجأ أنّ طفلتي لم تعدْ طفلة، وأنّ الدواء الّذي وصفوه لحالتها سلب جمالها، وأنّ ملامحها المتحجّرة تُفزعني. هوّة عميقة سقط فيها قلبي. خرجتُ من البوّابة العملاقة، وفي الشّارع، أفرغتُ الحقيبة، وكوّمت الأطقم البيضاء والورديّة في زاوية عند السور، وأضرمتُ فيها النّار.

- إنّها عشرون، مئة، بل أكثر.

هل هذا ما تمتمتْ به منى ونحنُ ندخلُ إلى الملجأ قبل أيّام؟

لم تكن طفلتي تعرف العَدّ أكثر من عشرة.

عروسٌ للبيع

لقد فقدتُ منذ مدّة فضولي في متابعة أخبار حارتنا، والأصحّ أنّني لم أكن يومًا فضوليًّا فيما يخصّ ساكني الحيّ كلّهم. انتقالي للعمل والعيش في العاصمة وزياراتي القليلة للحيّ كلّها كانت كافية كي لا يربطني به شيء سوى واجب أُسريّ، أقوم به في الإجازات الطويلة دون حماس كبير.

خبر واحد نقلتْه أمّي لأختي على مسمع منّي كان كافيًا لتنشيط غدّة الفضول عندي.

- "أمّ لسانَيْن» تُقسم أنّها رأتْهُ قبل ليلَتَيْن، يقود عربته بينما عروسه تجلس في مقدّمة العربة، ثمّ حملها فيما بعد بين ذراعَيْه إلى غرفته. كان الوقتُ متأخّرًا، ولم ترَ ملامحها جيّدًا، ولكنّ هذه الثرثارة تُقسم أنّها جميلة وناصعة البياض مثل الدمية. المهمّ أنّه تزوّج، أقلّه سيكون هناك مَنْ يعتني به، ويؤنس وحدته بعد وفاة أمّه.

علمتُ لاحقًا من أختي أنّ «الهاء» تعود إلى جارنا الشّابّ، وأنّ أمّه التي كانت «تُؤنِسه» لم تغادر سريرها منذ سنوات، وهو مَن اعتنى بها، وربّما كان خَرَسُهَا سببًا في قلّة كلامه، وعدم تواصله مع أحد من الجيران. لم يشدّني أيّ من التفاصيل، وقد رأيتُها عادية، لا تستحقّ الوقوف عندها، إلاّ تفصيلٌ واحد رأيتُهُ، لا ينسجم مع ما هو سائد في الحيّ: العريس يسحبُ

عروسه من يدها، وهي تجاهدُ لِلَّحاق به بينما تنشغل يدها الأخرى بالاعتناء بفستانها، وتثبيت شَعْرها، ومجاملة فضول النساء. تُدهشني قدرة العروس على عمل ذلك كلّه بيدٍ واحدة فقط.

وهذا الشّابّ الذي أعرف عنه القليل يحملُ عروسه بين ذراعَيْه إلى غرفته، وكان قبلها يُجلِسُها على مقدّمة العربة، وأكاد أجزم أنّه غنّى لها بينما نسمات الليل تتلاعب بفستانها وتسريحتها، ويداها ممدودتان كجناحَيْن يستقبلان الهواء بحُرّيّة. لم يكن سوى بائع متجوّل، يمضي نهاره على رصيف السوق أمام واجهة دكّان للملابس النسائيّة، إذا وقفَ زاحم دمى رشيقة، تعرض آخر صرعات الموضة، وإذا جلس، غاب رأسه بين بضاعته الرخيصة؛ حلى بلاستيكيّة ومشابك ودبابيس وعطور مزيّفة.

لا ينادي على بضاعته، ولا يُروّج لها، وكأنّه يبيعُ الصمت في جلبة السوق.

أمسكتُ بطرف الخيط، وتركتُ أمّي تشدّني بعفويّة في مكالماتنا الأسبوعيّة نحو تفاصيل متقطّعة عن الجار الشّابّ وحياته الغامضة. أحيانًا كانت تستغرق في الحديث عن أحوال البيت والأسرة، وتغيب عن حديثها أحوال العروسَيْن، لكنّني كُنتُ أعيدها إلى هناك بأسئلة عامّة، إلى أن أصلَ إلى لغز الزواج الليليّ الغامض.

- وما هي أخبار الحيّ؟ هل باركتِ لجارنا الشّابّ بزواجه؟ أم لأنّه خجول وقليل الكلام؟

- يا ابني، لا أحد رأى العروس، ولا نعرف عنها شيئًا، وهو لا يردُّ على استفساراتنا، يهزُّ رأسه، إذا سلّم أحدٌ عليه مُبارِكًا، ثمّ يلوذُ وراء صمته.

تخيّل أنّ أمّ لسانَيْن أصبحت برج مراقبة، ولم تنجح في معرفة اسمها حتّى، لولا أنّنا نراه ينشرُ أحيانًا ملابس نسائيّة جديدة، وتنبعثُ في المساء روائح الطبخ من غرفته، لقلنا إنّ الزّواج إشاعة، روّجت لها الجارة. قبل يومَيْن، سمعتُهُ يغنّي، ويضحك، ويكلّمها، ولم أسمع لها صوتًا. هل تكون خرساء هي الأخرى؟ قد تكون عمياء أيضًا. لماذا يتزوّج فتاة بهذه العيوب؟

حاولتُ في كلّ مرّة أن أسحب منها معلومات أكثر كمحقّق ذكيّ لئيم، ثمّ أعود لأسأل نفسي عن سرّ اهتمامي بقصّة بائع خجول كثير الصّمت، أهي غدّة الفضول تنشط في قصص الغرباء؟ هكذا ظننتُ. الأخبار غير المكتملة الّتي تصلني من أمّي و أختي أربطها معًا، وأسدُّ فجواتها بافتراضات من وحي ما أعرفهُ عن طبيعة الناس في محيطي.

شابٌّ سئمَ تدخّل الناس في شؤونه.

شابٌّ غيور يخافُ الفتنة على زوجته.

شابٌّ غريب الأطوار في حيّ شديد العاديّة.

زوجة تكتفي بزوجها عن الناس كلّهم.

أو لا شيء من ذلك كلّه.

في آخر زيارة لأسرتي قبل سفري الطويل إلى خارج البلاد، تجوّلتُ في السوق، لأشتري بعض الهدايا الرمزيّة، أحملها لأصدقائي هناك. كان الشّابّ البائع يجلسُ جلسته الدائمة أمام دكّان للملابس النسائيّة. مرّ على خبر زواجه شهران أو أكثر.

مددتُ يدي مسلّمًا وأنا أقول:

- مبروك زواجكَ، أعتذر عن التأخير في التهنئة، فأنا لا أزور البلدة إلاّ نادرًا.

لم يمدَّ يده، وظلّ مشغولًا في ترتيب بضاعته. ردّ ببرود:

- لقد ماتت، وبعتُها من يومَيْن لصاحب الدّكّان، إنّها هناك في الوسط، بالفستان الأصفر المزركش.

بحدَقَتَيْن مفتوحَتَيْن على دهشة ورعب، رأيتُ دمية بفستان أصفر مزركش، تتوسّط دميَتَيْن بفساتين ملوّنة.

سنوات كثيرة غبتُها عن الحيّ، وعندما عدتُ كانت أشياء كثيرة قد تغيّرت فيه، لم أستطع ربطها بصورتها قبل ذلك، الشوارع، الوجوه، رائحة أكوام القمامة، تيّار الهواء. كانت قصّة الشّابّ وزوجته الدمية قد غابت بتفاصيلها كلّها عن ذاكرتي ، لكنّها عادت، لتكون أكثر من قصّة غرائبيّة مُحمّلة بأسئلة كثيرة حينما وقعت عيني على لافتة كبيرة في واجهة أحد المحلاّت، كُتب عليها بخطّ يدويّ جميل:

"دُمى محلّيّة، ومُستوردة».

قضيّةٌ وطنيّة

لا تكفيه الحرب وإيجار البيت وأمّه التي ما تنفكُّ تشكو البرد وضيق الحال (لا ينسى كيف قامت قبل يومَيْن بإحراق الملابس القديمة، كي تُدفئ البيت) وأخوه الذي يتسكّع في الشوارع والفتاة الّتي يحبّها تتعمّد تجاهلهُ.

تنقصه هذه البهدلة الآن؟

بأيّ وجه سيقابل وجه صاحب المحلّ هذا الّذي لا وجه محدّدًا له؟

ضحكَ من هذه الوجوه كلّها الّتي تزاحمت في سؤال واحد. تخيّل صديقه المثقّف يهزّ رأسهُ إعجابًا من سؤال حكيم، ويضيف جملة فلسفيّة، لن يفهمها أبدًا مهما حكّ رأسهُ. لماذا يتعمّد هؤلاء المثقّفون اختيار كلمات صعبة وجمل طويلة؟

مرّة أخرى، يأخذهُ هذا الرأس بعيدًا عن مصيبته الطارئة على روتين يومه:

يخرجُ من البيت في الثامنة صباحًا، يجتازُ ثلاثة شوارع، وقبل أن يفتح الدّكّان يشتري من المقهى ساندويشة وكوب شاي، ويثرثر مع روّاد المكان نصف ساعة أو أكثر. عادة ما تدور الأحاديث حول مباريات كرة القَدَم والفريق الرابح وذاك الخاسر.

حين يصل الحديث إلى أحوال البلد والناس والحرب يتمتم كثيرون:

لنا الله، ولا أحد سواه!

يقول بجرأة:

أين هو الله؟ هو لا يحبُّ الفقراء أمثالنا. الله لو كان موجودًا، فهو حتمًا ربُّ الأغنياء فقط. نموت ونجوع ونُرمى في العراء، وهو لا يحرّك ساكنًا.

لو سمعه صديقُهُ المثقّف سيُصفِّق له معجبًا. هو أيضًا يعتقد أنّ الله غير موجود في الأحياء الفقيرة، لهذا يُشفِق على صلوات الناس لربّ، لا يمرُّ من حيّهم إلا ليوسّع السماء لطائرة أخرى وقذيفة جديدة.

مرّة أخرى يحيد ذهنهُ عن ورطته، ولماذا لا تكون هذه الورطة نتيجة مباشرة لإغفال الله لهُ؟ لا يعرف، ما دام الله ليس موجودًا في حيّهم، فهو غير مسؤول عنها.

يعرف أنّه يجب أن يجد حلًا سريعًا، وإلاّ سيرميه صاحب المحلّ في الشّارع، وماذا يعطيه هذا الحقير؟ قروشًا لا تبدّد سواد أيّامهِ، ولكنّها تحفظ كرامته، وهي عندهُ جوهر وجوده.

سيذهب إلى صديقهِ المُثقّف، ويقول له دون مقدّمات:

- اسمع، أنا في ورطة حقيقيّة، الشرشف التركيّ الثمين سُرِقَ من الدّكّان، لا يهمّني أن أُطرَدَ من العمل، ولكنّني لن أرضى أن يُشاعَ عنّي أنّني لصٌّ. هل تفهمني؟

- هل تعرف أنّ كلمة شرشف تركيّة الأصل، وليست عربيّة؟

- قلتُ لكَ إنّه الشرشف التركيّ المعلّق في واجهة المحلّ منذ بداية الحرب.

- نعم، أعرفهُ. أظنّه أثمن ما فيها.

- الغريب أنّ مُعلّمي لم يسألْني عنهُ. كيف لم يلحظْ اختفاءه؟

- ربّما يمتحنُ أمانتكَ.

- وإذا لم أسترجع الشرشف؟

- ستكونُ لصًّا خائنًا في اعتباره طبعًا.

- ماذا أفعل؟

- لا أعرف. ليس من السّهل إيجاد شرشف طاولة مسروق إلاّ إذا اقتحمنا بيوت الحي كلّها، وهذا نظريًّا غير ممكن.

نظريًّا غير مُمكن؟ وكيف يكون ممكنًا؟

هؤلاء المثقّفون لا يملكون سوى الكلام السِّحْرِيّ، أمّا الحلول السِّحْرِيّة، فلا يُتقنها سوى اللصوص، اللصوص فقط.

تركهُ في المقهى، وقد تملّكهُ يأسٌ كبير. إذا وجد الشرشف، سيعيدُه إلى مكانه في المحلّ، ويبحث عن عملٍ جديد. لا يريد العمل مع شخص يضع أمانته في اختبار دائم.

لم يفتح المحلّ في اليوم الثاني. قال للصبيّ الّذي أرسلهُ المعلّم يستوضح غياب عاملهِ عن العمل:

قل لهُ إنيّ مريض جدًّا، أحتاج يومَيْن أو ثلاثة حتّى أتعافى، كما أنّ رصيد الهاتف عندي قد نفد.

عند الظهر، كان صديقهُ المُثقّف يقفُ ببابهِ.

تعالَ معي، لقد وجدتُ شرشفكَ.

أمطرهُ بأسئلةٍ كثيرة، أينَ؟ وكيفَ؟ وهل أنتَ متأكّد؟

تعال معي، وستعرف.

بعد عشر دقائق من المشي السّريع، توقّفا أمام عمارة، تطلُّ على شارع مكتظّ، أشار صديقهُ إلى الطابق الثاني، حيثُ تستندُ امرأةٌ أربعينيّة على حديد شرفتها، والشّرشفُ التركيّ يتمايل على حبل غسيلها. ما زال رطبا مُراوغًا، يخال المراقبُ للمشهد أنّهما (المرأة والشرشف) تآمرا على المارّة، هي تُشعل نارًا في رؤوسهم المرفوعة نحوها، وهو يُخفّف من لهيبها بقطرات تسقط عليهم مباشرة.

- إنّه هو، هو بعينهِ!

- أعرف، ولماذا أحضرتكَ إلى هنا، برأيكَ؟

- كيف وصل إليها؟

- ليس هذا مُهمًّا، المهم أنّنا سنستعيدُهُ.

- كيف بربّك؟

- هي تريدني كما ترى، وأنا أريدُ الشرشف، ولا بأس من بعض التنازلات، إنّها قضيّة وطنيّة.

- قضيّة وطنيّة؟ إنّها كرامتي وسمعتي.

- طبعًا، وكرامتكَ من كرامة الوطن.

عدنا إلى الكلام السِّحْرِيّ.

بثقة كبيرة، دلفَ المُثقّف إلى العمارة، واختفت المرأة من الشرفة.

بعد ساعَتَيْن، عاد إليه حاملاً الشرشف في كيس من النايلون.

- تفضّل شرشفك التركيّ الثمين، لم يكن الأمر صعبًا، على العكس، يمكن القول إنّ بعض قضايا الوطن تكون مُمتعة جدًّا.

- كيف وصل إليها؟

- (ضحكَ طويلاً) لقد أهداها إيّاهُ مُعلّمكَ مقابل تنازل بسيط منها.

- هذا القوّاد الحقير ... وكُنتُ سأصيرُ لصًّا خائنًا! يختبرُ أمانتي بينما يتمتّعُ هو معها؟

- لا عليكَ، هذه بضاعتنا رُدّت إلينا، كما قالوا، خذهُ، لقد صار من حقّكَ الآن.

غيّر رأيهُ. اللصوص يملكون حلولًا سِحْرِيّة، والمثقّفون أيضًا.

سار نحو بيتهِ مَزهوًّا.

لقد أصبح أخيرًا صاحب قضيّة وطنيّة.

مئةُ حكاية وغابة

جلستْ، وأسندتْ ظهرها على آخر شجرة سروٍ، تنتهي عندها الغابة. غفتْ أو ربمّا سرحتْ، وقد باغتتْها حقيقة عليها أن تتعلّم كيف ستعيشُها يقينًا في المقبلِ من سنواتها، حقيقة أنّ هذه الغابة سرقت منها شجرة قديمة، اختبأت وراءها ذات ليلة قبل ثلاث سنواتٍ.

أخرجتْ دفترها، وراحتْ تكتب ليلتها تلك للمرّة المئة والأخيرة. ستحرقُ دفترها وحكاياتها هنا في هذا المكان، وتلك الليلة أيضًا. ليس من العدلِ أن تبدأ حياة جديدة، وهي تحملُ وِزْرَ غابة معها.

" على أطراف القضايا الكبرى تحدثُ أمورٌ كثيرة. الحرب قضيّة كبرى، والعدالة أيضًا.

لم أفكّر كثيرًا في الخيارات المطروحة، ولا في الأسباب، لم يكن هناك وقتٌ للتفكير في الولاءات الأُسريّة. كُنتُ في غرفتي حينما كان أربعة رجالٍ يُسوّون حساباتهم مع أبي. ببساطة شديدة، كُنتُ أملكُ خيار القفز من النافذة، وعائلتي تُذبَح في الصّالون، أو أن أموت خوفًا أو ذبحًا. هذه هي الأمور الّتي تحدث على أطراف الحرب والعدالة، كأن أنجو في تلك الليلة، وتفنى أسرتي، كأن تفصل غابة بين بيتنا وبيوت قرية أخرى. كأن أكون ممتنّة للغابات الكثيفة، وللعتمة والخوف.

كلّما تعبت ساقاي، ووقفتُ لألتقطَ أنفاسي، داهمني طوفانٌ من الدم، يزحفُ بسرعة بين الأشجار، فأركضُ وتركضُ الغابة معي. أتوقّفُ مرّة أخرى، فتشتعلُ الأرضُ تحتَ قَدَمَيّ، أركضُ. أتوقّفُ، تصيرُ أنفاسي فحيح أفاعٍ، تنهبُ الأرض ورائي.

ركضتُ حتّى انتهت الغابة، وخارت قواي، لكنّ الفحيح لم ينتهِ، وطوفان الدّم والنّار. تصلّبتُ، تمدّدتُ، والتصقتُ بالأرض. احتميتُ بشجرة قديمة، هربت من الغابة، أوصلتْني عند أوّل باب في القرية، وعادت. بيدٍ هشّة طرقتُ الباب، ثمّ سقطتُ، وغبتُ عن الوعي.»

هنا تنتهي حكاياتها جميعُها، عند هذه الجملة بالذّات، فكلّ ما بعدها هو تفاصيل، تحاول بقوّة أن تجعلها بدايات لحياة جديدة، تحاولُ وظلُّ شجرة قديمة يسبقها دائمًا. نظرت نحو الغابة الوادعة، لا تبدو أبدًا كَمَنْ سرقت شجرة من حكايتها.

قبل أن تأكلَ النار دفترها، خلّصتْ منه ورقة، اسودّتْ أطرافها، وكتبتْ فيها:

"قبل ثلاث سنواتٍ، نجوتُ من الذَّبْحِ، ومن الغابة، تصلّبتُ، تمدّدتُ، والتصقتُ بالأرض، وأورقتُ».

دسّتِ الورقة في حقيبتها، ثمّ علّقتْها على فرعٍ مُورِقٍ، نبتَ على كتفها.

شطرنج

لم تكن تعتني أبدًا بطقوس الكتابة، ولم تعتقد يومًا أنّها ستربط قلمها بتسلسل زمنيّ ومكانيّ دقيق وشبه مقدّس. بعد عامٍ من التّوقّف المُقلِق، عادت لكتابة روايتها، اصطادت الطقس، كما تصطاد الفكرة، عَدَّتْهُ مصادفة، رتّبها قَدَرُ الكتابة، فوافق مزاجها المتقلّب.

في الثالثة فجرًا، تمرُّ سيارة إسعاف مسرعة من شارع بيتها، تشقُّ بصافرتها ليل النيام وهدوءهم. تستيقظ هي نشطة، تعدّ قهوتها، وتجلس عند طاولة الكتابة المُطلّة على الشارع، وتشرع في الكتابة. استغنت عن المنبّه الّذي طالما كان شرًّا، لا بدّ منه، يُفزعها صوته، فتُسكتهُ مرَّتَيْن، وهو يصرُّ على إيقاظها، فتقوم مُجبَرة متكاسلة.

لم تلمسْه منذ شهر، صافرة الفجر أنهت جَدَليّة البُغض والحبّ بينهما. كانت تبدأ صباحها برغبة جامحة في تحطيمه، وتنتهي ليلاً بمُراضاتهِ، واستعادة الثقة بينهما.

تستلهمُ تفاصيل كثيرة من رحلة سيّارة الإسعاف الّتي تُنشّط خيالها نحو مواطن الوجع ومواجهة أسئلة كبيرة حول الحياة والموت، تتشعّب الأحداث، وتتعقّد، وتعود لولبيًّا للحدث الرئيس، وبطل روايتها: سائق سيّارة إسعاف.

هناكَ شخصٌ ما في هذه الجهة من البلدة يتألّمُ أو يحتضرُ، يطردُ شبح الموتِ والمرض، ويستغيثُ، أمّا هي، فتمارسُ الكتابة امتنانًا للألم، وانتصارًا على الفناء.

تخلقُ الشخصيّات من العَدَم، تبثُّ فيها حياةً، وتمنحها أدورًا تطول وتقصر حسب ما يُمليه عليها خيالها وقلمها. شخصيّات تسأل وتتأمّل الحياة في رحلة بين مكانَيْن متشبّثة بطَوْق النجاة المُتاح؛ سيّارة إسعاف.

" ماذا لو أوقفتُ السّيّارة هنا على قارعة الطريق، وتمشّيتُ على ذاك الجسر؟ ماذا لو استبدلتُ بصافرة الرّعب هذه موسيقا هادئة؟ وسط دهشة الطبيب المرافق والمريض أوقف السّيّارة على جانب الشّارع، ونزل منها. مشى بهدوء نحو الجسر وهو يصفّر لحنًا هادئًا. وقف عند الحافّة، وصاح بأعلى صوته: ...»

وتوقّف قلمها هنا بعد شهرٍ من الكتابة المتواصلة.

تحجّرت شخصيّاتها كَقِطَع الشطرنج الّتي تنتظر يدًا تنقلها إلى مربّعٍ أسود أو أبيض، أو تقتلُ الملك، وينتهي الأمر. عجز قلمها عن تحريك أيّ قطعة مقدار حبّة رمل، وعجز خيالها عن تصوّر المسار الّذي يجب أن تسلكه نحو موت الملك أو محاصرته. لم تعرف هل غادرتْها متعة اللعب أم أنّ خللًا أصاب طقسها اليوميّ بعد أن توقّفت سيّارة الإسعاف عن المرور من شارعها؟

في صباح اليوم التالي، كانت في مكاتب شركة الإسعافات الّتي حفظتْها من الشّارة الّتي ظهرت على واجهة السّيارة حاملة بطاقتها الصحافيّة. تظاهرتْ بأنّها تُعدُّ مقالًا مهمًّا عن الخدمات الطّبّيّة في المنطقة، بما فيها خدمات الإسعاف.

أجاب الموظّفان عن أسئلتها بحماس غريب.

- لقد توقّفت سيّارتنا عن العمل في هذه المنطقة منذ عام تقريبًا، ولكنّ المكالمات ما زالت تصلنا كلّ ليلة تقريبًا من رَقْم واحد لم يتغيّر قبل الثالثة فجرًا بقليل. صرنا ننتظرُ المكالمة بشوق، ننتظرُ صوتًا أنثويًّا رقيقًا، يقرأ علينا فصلًا من رواية مدهشة عن سائق سيّارة إسعاف.

كادت تختنق.

لم تتّصل بنا منذ يومَيْن، ولم نعرف نهاية الرّواية. أضاف أحدهما بحسرة.

هل أستطيعُ الاتّصال بها؟ سألت بصوتٍ مخنوق.

ضغط على الأرقام في هاتف المكتب، وناولها السّمّاعة.

في حقيبتها، رنّ هاتفها الجوّال.

يقظةٌ

«الذاكرة محض لوحة مُتقَنَة التشويش»

لم أفهم جيّدًا معنى هذه الجملة إلاّ وأنا أتابع الطبيب ينكبُّ على رسم ذاكرة الشّابّة النائمة في سرير على يمينه. لوحة زاخرة بتفاصيل متشابكة، ولكنّها من مكاني وراء زجاج النافذة كانت تبدو مُتقَنَة.

استطعتُ أن أقول من مكاني: هذه اللوحة جميلة ومُتقَنَة، ولكنْ، تنقصها ألوانٌ حيّة.

في سنواتي العشر، لم أكتسب بعد قدرة نقديّة فنّيّة، ولكنّي كُنتُ أملك حسًّا فنّيًّا، سأرثه قبل عشر سنوات. هنا أيضًا من مكاني وراء النافذة، كُنتُ عالقة بين قبل وبعد بشكل أربكَ حسّي الزمنيّ.

يردّد الطبيبُ منْ مكانهِ: «الذاكرة محض لوحة مُتقَنَة التشويش»، ثمّ يُمسك بقلمه، ويرسم دون توقّف لثلاث ساعاتٍ حتّى تستيقظُ الشّابّة المريضة. يلتفتُ نحوها، ويُردّد أنّها أتعبتْهُ هذه المرّة، وهو يلتقطُ كلّ ما يصلهُ من الجهاز، هذه التفاصيل كلّها؟ لو نجدُ طريقة نُشغلُ بها طفلَيْن ما ينفكّان يسدّان تدفّق الذاكرة. هل تعرفين ماذا يُريدان؟

تهزُّ رأسها، ولا تتكلّم.

أنا لم أعترض طريقهُ، إن كان يقصدني أنا، أنا أقفُ وراء النافذة بهدوء، وهو ينظرُ إليّ بين الحين والآخر كأنيّ مُتطفّلة على تجاربه، أو خطأ مزعج في فرضيّاته الطّبّيّة. تركتُ له الزمن ينساب عبر الأسلاك المُتدلّية من رأس الشّابّة النائمة، ولم أتدخّل، ربمّا أستطيعُ أن أنسلَّ من إحداها في غفلة منه. ما دام قرّر خوض هذه التجربة الغريبة، فعليه أن يتحمّل النتائج، كأن يسحبني من عالمي، ويرميني هنا في ساحة خلفيّة لمستشفى مُملّ.

يتجاهل الشّابّ الّذي يظهرُ فجأة في الغرفة، ويُفسدُ اللوحة بخطوط سوداء عريضة، تكاد تغطّي على باقي التفاصيل. ثمّ يختفي حين تتململُ الشّابّة في سريرها بألم وانزعاج دون أن تستيقظ من نومها. كلّ ظهور له يُفسدُ اللوحة ويُقلقُ الشّابّة، ويؤخّر عودتي.

بدأتُ أشعرُ بالتعب والنعاس. إن غفوتُ هنا، سأصيرُ خاطرًا أو حلمًا، وقد تجفّ الألوان الّتي أحملها منذ ثلاثة أيّام.

فجأة يتصبّب الطبيب عَرَقًا، ويبدو عليه إجهادٌ شديد، وتتحرّك الأسلاك التي تصلُ بين رأسه ورأس الشّابّة مارّة بجهاز غريب. نزعها كلّها بقوّة، وقام نحو النافذة، وشرّعها للهواء. كانت فرصتي كي أقفز بخفّة من النافذة إلى الغرفة، أنا وورقة شجر صفراء جافّة. هي حطّت على الأرض، وأنا تسلّلتُ من أحد الأسلاك عبر ممرّات ضيّقة ومظلمة، تنتهي بمساحة بيضاء فارغة. لوّنتُ هوامشها، وجلستُ في مركزها، أرقبُ الآتي.

كانت آذانها قد بدأت تألف صوتي الّذي تسرّب في حَنْجَرَتِهَا المتحجّرة على صمت سنواتٍ. وأنا فاجأتُها أنيّ حفظتُ أنفاق الهروب من تفاصيل اللوحة الباهتة. نزلتِ الشّابّة عن السرير.

نظرتْ إلى الوراء، حيثُ كان الشَّابُّ العابس يُتابعها بغضبٍ ، قالت بصوتي دون أن تنظرَ إليه: لا تهتمّي لأمره، إنّه يتربّص بعلبة الألوان.

قلتُ بصوتي: لقد سرقها مرّة منكِ، فجاءت اللوحة باهتة ميّتة. لن يحصل عليها مرّة أخرى. تأكّدتُ من وجودها في جيب معطفي.

أسرعنا الخُطى.

- هيّا، هيّا قبلَ أن ينتبهَ الطبيبُ إلى عقارب الزمن في الجهاز، لقد حرّكتها عشر سنواتٍ نحو الأمام.

قالت إحدانا بصوت الأخرى.

دفعنا باب الغرفة، وخرجنا من المستشفى. بزاوية نظري، رأيتُ الطبيبَ يُحطّم جهازه المُعطّل، وشابًّا دون ملامح ينتظر في وسط اللوحة أن تتحرّك العقارب الصدئة.

لا أتذكّر مَنْ منّا عرفتِ الطريق إلى البيت.

الباسم

في آخر غارة على الحيّ قبل شهر، سقطت قذيفة في شارعنا، شظاياها وصلت سطح بيت «أبو الطير»، وكعادته عند كلّ غارة، كان يدخل القفص، يغنّي لطيوره، ويتركها تأكلُ الحَبّ عن رأسه. تهشّم القفص، وتناثرت أشلاءُ الطيور ودماؤها في المكان، ولكنّنا لم نجده، ولم نجد رأسهُ. قال أحد الجيران ببساطة: لقد طارت رأسهُ من زمان، منذ هجر الناس، وراح يُكلّم الطيور.

وكان يُكلّمني أيضًا، أو (لأكن أكثر دقّة) كُنتُ لا أكفُّ عن الكلام، ويكتفي هو بالقليل القليل منه. أصعد إليه في سطح البناية، وهو داخل القفص، يُطعم طيوره، ويُنظّف فضلاتها، أُحيّيهِ، ونادرا ما يلتفتُ إليّ. أسألهُ عن أحواله، ثمّ أسردُ له يوميّات الخوف والحرب.

- "المهمّ ألاّ يتسرّب الخوف إلى قلبكَ وروحكَ، إنّه وحش الحرب وشيطانها، متى تسلّل إلى روحكَ، سيصير أنتَ، سيصيرُ عينَيْكَ».

قالها بثقة، وهو يحملُ الفضلات خارج القفص.

لكنّي كُنتُ أخافُ، أخافُ من الزقاق الخالي والحانة الكئيبة والوجوه الرّاحلة وقهقهة الموت.

أخافُ من وجهي في المرآة، وهو يفقدُ ملامحهُ.

حينما كُنتُ أحصي أمامه أصدقائي الرّاحلين، يقول: تعالَ، نُحصِ مَنْ بقيَ، أُحدّثه عن رعبي من الحواجز الأمنيّة، يُقاطعني: دعكَ من حواجز العسكر، واقفز فوق حاجز الخوف. أحدّثهُ عن آخر حبيبة، يقول: تكذب، ما زلتُ أرى الأولى في عينَيْكَ.

كان ذلك قبل أن أصنع قناعًا باسمًا لوجهي.

بعد ثلاثة أعوام من الحرب، اكتشفتُ ذات صباح أنّ الابتسامة الّتي جاد بها وجهي في سنواتي السابقة لم تعد تُطاوعني، تتمدّد عضلات الوجه، وتنفرجُ الشفتان، ولكنّها لا تشبه الابتسامة في شيء، مَلمحٌ هجين، لا يتناسبُ مع نظرة الرعب العالقة بين جفنَيّ.

كُنتُ أقرب إلى المهرّج الباكي.

صنعتُ لي قناعًا جِلْدِيًّا رقيقًا يُشبهني، تتوسّطه ابتسامة دائمة، قناعًا جامدًا، وابتسامة لا تنتهي.

وأبو الطير الذي نادرًا ما يلتفت إليّ كان يقول قبل أن أبدأ الكلام: لا تكلّمني من وراء قناع، يا رجل! تبدو مضحكًا وبائسًا.

أتعرّى أمامهُ من القناع، ويصيرُ هو مرآتي الّتي تبصقُ في وجه الحرب، وتسخر من الخوف. أغنّي وأرقصُ وأقفُ عند الحافة فاتحًا ذراعَيّ متهيِّئًا للتحليق. أنظرُ إلى الخراب، وأضحكُ ملءَ عينَيّ.

التفتَ إليّ، وقال: يومًا ما، سنُحلّق فوق هذا الخراب، فقط لو قطعنا رأس الخوف.

نزلتُ درج بيته عائدًا إلى بيتي. لا أعرف من أيّ زاوية تسلّل الخوف، وتبعني حتّى كاد يلمسُ كتفي، وضعتُ القناع الباسم، ثمّ التفتُّ فجأة نحوهُ. تسمّر مكانه، ثمّ اختفى في عتمة الزّقاق.

لم أفكّر كثيرًا في مصير (أبو الطير)، هي الأيّام ذاتها، ينقصها مجنون آخر، هي الحرب ذاتها تلعق بقايا جراحها، والناس يمشون بملامح، لا يعرفونها.

رحتُ أُرمّم القفص، لحاجة لم أعرفها، إلى أن عادت الغارات ترجم الحيّ.

وضعتُ القناعَ الباسمَ على وجهي، وصعدتُ إلى السطح حاملاً قنّينة العَرَق المغشوش. تسلّلتُ إلى القفص، حيثُ لا أنيس سوى حمامة نجت من المجزرة، تنقرُ رأسي تارّة، وتشرب من كأس العَرَق تارّة أخرى.

- تعالي، أيّتها الحمامة الوحيدة، أحكي لكِ أخبار آخر حبيبة.

رفرفتْ بجناحَيْها، وطارت بعيدًا حتّى اختفت.

نزعتُ القناع وحلّقتُ وراءها فوق الخراب.

بطرف عيني لمحتُ (أبو الطير) أسفل العمارة، يحملُ رأسًا مقطوعًا، ويرتفعُ عن الأرض.

صورةٌ قديمة

بحثتُ عنها في الأحياء القريبة، أبدأ من حَيِّنا، ثمّ أُوسّع الدائرة إلى الأحياء المُجاورة، وأنا أنادي باسمها، وأتبعها بتقليدٍ لمواء طويل متقطّع، مُتجاهلًا نظرات الاستهجان والسخرية من أهل الحارة خاصّة الرجال بينهم.

شابّ طويل عريض يبحثُ عن قطّة كَمَنْ يبحث عن طفله الوحيد، وهنا يتربّصون بالقطط كطفلٍ زائد عن الحاجة.

فكّرتُ أن أتّصل بحبيبتي، وأسألها عن قطّتنا، ماذا سأقول لها؟ لقد أهملتُ قطّتنا، فاختفتْ أو هربتْ؟ ستُداهمني الذّكريات والوجع، وأنا أحاول منذ أسبوعَيْن أن أنسى وأُرمّم حياتي في بيتي القديم بعيدًا عنها، وعن حياة، تقاسمناها لأربع سنوات. ليست فكرة جيّدة، أقلّه أتجنّب صمتها في الجانب الثاني من السّماعة، وتنهيدة قد تكسرني. لقد عاتبتْني عيناها ونحن نفترقُ عند باب شقّتنا، لم تقلْ سوى: هي قسمة عادلة أكثر من السنوات التي اقتسمنا فيها كلّ شيء.

ربّما قصدتْ نصيبي في قطّتنا.

أو ربّما الكُتُب، أو المُقتنيات الكثيرة الّتي جمعناها خلال أربع سنوات.

هي قسمة عادلة؟ القطّة والذكريات العميقة المُوجِعة.

بعد يومَيْن، قرّرتُ أن أغامر بمزيد من السخرية والاستهجان خاصّة وأنّ علاقتي بأهل الحيّ لا تتعدّى سلامًا صامتًا وهزّة رأس خفيفة، فلن يضرّني أن يشطبوني من قائمة الرجولة الخشنة الّتي ترمي القطط من فوق الجدران، وليس تلك التي تعلّق إعلانًا، يرصد مكافأة جميلة لمَنْ يتعقّب قطّة بيضاء، ويعيدها إلى صاحبها سالمة غانمة.

علّقتُ إعلانًا، كتبتُ فيه رجاء مختصرًا، ووصفًا لقطّتي من الذّاكرة، ورَقْمَ هاتفي. حاولتُ أنْ أُحيِّد الوجوه والتفاصيل الأخرى من صورتها المشوّشة أصلًا. لم أتوقّف لأفكّر في أمرَيْن: كيف لا أملك بين صوري الكثيرة صورة واحدة تجمعني وقطّتي؟ أو تجمعنا حبيبتي وأنا وقطّة مدلّلة؟ لماذا هذا الإصرار على استعادتها، وأنا أفعل النقيض تمامًا: أحاول التّخلّص من إحساس الفقدان الّذي يلازمني منذُ انفصلتُ عن حبيبتي.

لم يتوقّف هاتفي عن الرنين، اتّصالات من غرباء ومجهولين، يضربون لي موعدًا لتسليمي مفقوداتي، ويتسلّمون مكافأتهم، صار أطفال الحيّ أيضًا يبحثون عن قطّتي،

في الصّباح، تأتي مجموعة منهم تحملُ قطّة، تعرضها عليّ بنشوة الظافر: لقد وجدناها. أنظر إليها، ثمّ أعتذر منهم.

- ليست هي.

هل أنتَ متأكّد؟ انظرْ إليها جيّدًا! يصرّون.

لا، ليست هي.

لا تشبه تلك الّتي أبحثُ عنها.

بعد أسبوع من البحث والانتظار، فكّرتُ أنّه من غير المُجدي أن أتركَ الإعلان معلّقًا على خمسة جدران وشجرَتَيْن، رغم أنّ وتيرة الاتّصالات قد خفّتْ، وتراجعتْ، والقطط التي حملوها إلى باب بيتي عادت بخيبتهم وخيبتها.

ثمّ إنّه من المُضحك أن أُعلّق إعلانًا، ليس فيه صورة، تدلّ على أوصاف القطّة، ستصير قطط الشارع كلّها احتمالًا معقولًا.

وقفتُ أمام الإعلان الأوّل، وقبل أن تسارع يدي إلى تمزيقه، كانت صورة واضحة تطلُّ منه، صورة طفل يبتسم ملء وجهه، وهو يحضنُ قطّة بيضاء، وتحضنهما معًا يدان ناعمتان.

يبدو أنّ هناك مَنْ يلعب معي أو بي، وربّما هي مجرّد مزحة من عابر سبيل.

في الإعلان الثاني، كانت الصورة نفسها تُطلُّ عليّ.

وفي الثالث أيضًا.

أمام الإعلان الخامس، وقفتُ حائرًا، هل ارتفع الجدار عن مستوى يدي أم أنّ قامتي قد تقلّصتْ؟ وقفتُ على أصابع قَدَمَيّ، تطاولتُ وتطاولتُ، وبأطراف يدي، نزعتُ الإعلان. تفحّصتُهُ، ثمّ قصصتُ الصورة منه، وطويتُها بحرصٍ في جيب قميصي، إنّها الصورة الوحيدة الّتي تظهر فيها يدا أمّي وكُمَّ قميصها، وخاتمها أيضًا، وعنقها.

القطّة البيضاء الّتي هربت من البيت بعد رحيل أمّي بيومَيْن.

قبل عشرين عامًا.

أصواتٌ قديمة

كان يرافقنا في طفولتنا كَظِلٍّ فَقَدَ صاحبه.

طفلٌ غريبٌ ومقطوعٌ في مثل عمرنا لا يُشاركنا ألعابنا، ولا أحاديثنا حتّى جزمنا بخَرَسِهِ أيضًا. لم يكن أحد يعرف له اسمًا ولا عائلة ولا بيتًا. يحملُ مخروطًا ورقيًّا صغيرًا، يدور به بيننا وحولنا، يجمعُ فيه الهواء، هكذا كنّا نعتقد.

أين كان يذهب بالهواء الّذي يجمعُه من حولنا؟

لم نعرف. يبدو أنّه كان يحفظهُ في مخروط أكبر أو في غرفة حديديّة محكمة الإغلاق. مخاريط ورقيّة كثيرة تكدّستْ في مكانه البعيد. كنّا نقول ساخرين.

حينما كنّا نركض أو نضحك أو نتجادل حتّى تنقطعَ أنفاسنا نصرخُ به أن: أعطِنا ما جمعتَ من هواء، يا حقير. يُغلقُ مخروطَه الورقيّ بعناية، ويهرب بعيدًا عن أنظارنا.

ثمّ اختفى إلى الأبد، هكذا اعتقدنا.

شاخَ الحيّ، وهرمنا نحنُ أيضًا، انحنت ظهورنا، وسقطت أسناننا. هرمنا، وظلّ الهواء كما هو نادرًا، فاسدًا وخانقًا. الكلام أيضا صار ثقيلاً ومُوجِعًا، فنسينا أكثرهُ.

إلى أن ظهر الطفلُ الظّلّ فجأة، لم يتغيّر أبدًا، بقي ظلًّا، كأنّه يبحثُ عن صاحبِهِ.

وقف وسط الساحة يجرُّ مخروطًا ورقيًّا عملاقًا، صعد فوقهُ، وضغط عليه بجسدهِ الصغير، فرّغ هواءَه حتّى همدَ، وتقلّص. هُرعنا جميعًا، نلتقطُ أصواتَنا القديمة.

ماتَ كثيرونَ منّا مختنقين بأصواتٍ لا يعرفونَها، أو بجرعةٍ زائدةٍ منَ الكلامِ.

قليلونَ هم الّذين نجوا من عاصفةِ الكلامِ الطارئة تلك، وكُنتُ واحدًا منهم.

لم ننجُ تمامًا.

وإلا لماذا ظللْنا سنواتٍ قبل أنْ نموتَ لا نتكلّم إلاّ من مخروطٍ ورقيّ؟!

في اليوم السابع

لا أعرف إذا كُنتُ سأمتلكُ الجرأة على القيام بما أُخطّط له منذ أسبوعٍ، كما أنّي لم أشارك أحدًا من زملائي المشاكسين بذلك، وهم الّذين يرحبّون دائمًا بكلّ ما أقترحهُ عليهم من أفكار. لكنّ الفكرة هذه المرّة خطرة، خطرة جدًّا.

منذُ علّق المعلّم هذه اللوحة مباشرة على الحائط الّذي أسندُ رأسي عليه، كلّما مللتُ من درسه، وأنا أشعر أنّ القيامة تختبئ مباشرة وراء الحائط. حتّى عندما أتجاهلُ اللوحة تأتيني أصواتٌ غريبة، تشبه تلك الأصوات الّتي تُصدرها القطط مجتمعة على فريسة عنيدة.

إنّها ستّة أيّام، كما يقول عنوان اللوحة. أسماء يوم القيامة: يوم الحشر، الطّامّة، البعث ... والمعلّم يقول إنّ هناك أسماء أخرى كثيرة، سنتعلّمها حينما نكبر، ولكنّنا الآن مطالبون بحفظها غيبًا، وحفظ معانيها أيضًا.

لماذا لا يكون للأيّام اسم واحد، كما نعرفها بلغتنا؟ الأحد الاثنَيْن الثلاثاء ...؟!

كُنتُ قد قرّرتُ أخيرًا أنّني سأُنفّذ خطّتي، مهما كلّفني الأمر.

مددتُ يدي، وسرقتُ من اللوحة يومًا واحدًا، ثمّ دسستُهُ بخفّة في حقيبة زميلي. همستُ له: سنتقاسمهُ معًا، أعدكَ!

قال خائفًا: ماذا سنفعلُ به؟

لم تكن عندي خطّة واضحة، ولكنّي فكّرتُ بسرعة، وقلتُ: سنُضيفهُ لأيّام العطلة.

ولكنّه أصرّ: سيُعاقبنا المعلّم بقسوة، إنّه معلّم الدِّين.

لا تخفْ، سنسرقُ يومًا آخر، ونُربكُ جدولَهُ المدرسيّ.

وأمّي؟ ستبكي وتستغفرُ الله كثيرًا، وقد تصومُ شهرًا؟

سيُحبّها الله أكثر.

سكتَ أخيرًا.

في الطريق إلى البيت، وقبل أنْ أمدّ يدي إلى حقيبته، أُخرجُ منها يومَنا، صار يبكي ويتمتم: الله سيحرقنا، لأنّنا لصوص.

لسنا لصوصًا! سنُعيده بعد العطلة، ولن ينتبه أحدٌ ليومٍ ناقص على الحائط، كما أنّ الله عنده أيّام العالم كلّها، فلن يغضب منّا.

بعد العطلة، عُدنا إلى المدرسة. لم ينتبه المعلّم لليوم الّذي سرقتُهُ من اللوحة غير أنّه علّق في ذاك الصّباح أمامنا مباشرة لوحة كبيرة، وأشار إلى عنوانها البارز: أهوال يوم القيامة.

فكّرتُ كم سيكون الأمر صعبًا أن أسرق اللوحة كاملة.

فهرس المحتويات

الطلبيّة رَقْم C345 3
زيارة ليليّة 5
فُسحة للنُّباح..... 7
الطلبيّة رَقْم C345 11
ثقبٌ أبيض..... 15
The Liberator (قصّة حلم) 19
حياةٌ من خشب..... 23
رجلٌ يبحثُ عن عينَيْهِ (من رسائل القرّاء) 29
عشرون، بل أكثر (في المحطّة الأخيرة)..... 33
عروسٌ للبيع..... 39
قضيّةٌ وطنيّة..... 43
مئةُ حكاية وغابة..... 49
شطرنج 51
يقظةٌ 55
الباسم 59
صورةٌ قديمة..... 63
أصواتٌ قديمة 67
في اليوم السابع 69

في مكانٍ آخر عشتُ فيه، أظنّه مستشفى، كُنتُ بين صحوٍ وآخر، أبحثُ عن نفق نجاة على شكل ثقبٍ في الحائط، إلى أن وجدتُهُ في ممرّ طويل، يصلُ بين غرف المرضى. حينما اختفى ذات يوم وراء لافتة كبيرة، تحملُ تعليماتٍ لزوّار المستشفى (من بينها تحذيرٌ بعدم التّدخّل في شؤون المرضى) استعنتُ بثقبٍ آخر في رأسي. كان موجودًا دائمًا، وكُنتُ أتجاهلهُ، وأتجنّبهُ، فالتّسلّل إليه يُكلّفني غيابًا تامًّا عن الوجود، يصيرُ رحلة مُرعبة في ممرّات ضيّقة وغابات مُظلمة وأيادٍ سوداء تسحبني نحو الهاوية. لم أكن أخرجُ منهُ إلاّ وقد انتَزع جزءًا منّي، لا أنجحُ أبدًا في استعادته، يظلُّ هناك، يموتُ، ويتعفّن.

ISBN 978-88-85771-64-2
9 788885 771642
الأدب أقوى
طبعة خاصة بفلسطين